الشيطان

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب عادل الجمال

كانت المرأة العجوز مسجاة على فراشها وهي تعالج سكرات الموت، وترقب من بين أهدابها المرهقة ابنها وهو منتصب أمام طبيب القرية وتحاول بكل ما أوتيت من قوة وإحساس أن تتبين ماهية الهمس الذي كان يدور بينهما . كانت هادئة ساكنة رغم ثقتها من أنها ستموت عن قريب ... ولكنها كانت مستسلمة للواقع الملموس . . فهي قد أكملت الثانية والتسعين من عمرها . . . وهذا يعني أنها قد أتمت رسالتها في الحياة

وتخللت شمس يوليو النافذة ... وغمرت أشعتها الملتهبة أرض الغرفة وارتفع صوت الطبيب قائلاً بشدة:

— إنك لا تستطيع أن تترك أمك وحيدة يا « أونوريه » وخصوصاً وهي في مثل تلك الحالة فهي قد تموت بين آونة وأخرى

وأجاب أونوريه بقلة اكتراث :

— مهما يكن الأمر . . . يجب علي أن أذهب لحصاد الحنطة ... وها هو ذا الجو اللائم لذلك ... ماذا تقولين في ذلك يا أماه ؟

ورغم شعور المرأة برعشة الموت وهي تسري في جسدها . . . فقد أشارت إلى ابنها بالموافقة وهي تحت تأثير جشعها وعبادتها للمال

وضرب الطبيب الأرض بقدمه محنقاً وهو يهتف :

— ما أنت إلا وحش غليظ القلب . . . ولكنني لا أسمح لك أن تفعل ذلك ... هل فهمت ؟ إن كان عليك حقاً أن تحصد حقل الحنطة فلا أقل من استدعاء المرأة « رابت » للعناية بأمك وأنا أصر على ذلك ... أما إذا لم تفعل ما أشرت عليك به . . . فسأتركك تموت وحيداً كالكلب الأجرب إذا ما افترسك المرض بأنيابه وحانت منيتك ... فتذكر ذلك

أي أحاسيس وجلة خالجت مخيلة أونوريه في تلك اللحظة ؟ لقد كان يخاف الطبيب الوحيد في القرية ، ولكنه إلى جانب ذلك كان يعبد المال ويقدسه ؛ وتردد قليلاً قبل أن يسأل الطبيب في النهاية قائلاً بارتياب :

— وكم تطلب المرأة رابت أجراً للعناية بأمي ؟

وتمتم الطبيب :

وأني لي أن أعلم .. إنها تتقاضى أجرها بالنسبة للزمن الذي تعمل فيه . . . فما عليك إلا أن تتفق معها شخصياً . . . وإني أنذرك أني أريد أن أراها هنا قبيل مرور ساعة واحدة

— حسن .. يمكنك أن تطمئن أيها الطبيب .. هأنذا ذاهب إليها

وغادر الطبيب الغرفة بعد أن قال للشاب بلهجة تهديدية متوعدة :

— مرة أخرى ... إني لست هازلاً في تحذيري إياك ...

وحين انفرد الشاب بأمه التفت إليها قائلاً بلهجة الذنوب :

— إننى ذاهب لاستدعاء الأم « رابت » كما أمر على ذلك هذا الفر ... فكونى هادئة حتى أعود ، ودون أن ينتظر إجابتها غادر الغرفة

كانت الأم « رابت » امرأة عجوزا تشتغل بكى الملابس وتنظيفها ... وإلى جانب ذلك كانت تعمل كممرضة لقاء أجر معلوم ، وكان وجهها جعداً كتفاحة مُعمرة ... وهى جعود حسود ... ذات طبع حاد لا يمكن أن يمت للرحمة البشرية بصلة

وحين استقبلت أونوريه فى منزلها ... كانت منهمكة فى مزج بعض الألوان لصبغ ثياب بعض فتيات القرية فبادرها قائلاً :

— كيف حالك أيتها الأم رابت ؟ هل تسير الأمور فى طريقها العادى ؟

والتفتت إليه المرأة مجيبة :

— نعم . نعم ... شكراً ... كيف حالك أنت ؟

— على أحسن حال ... إنها أمى التى تشكو

— أمك ؟ !

— نعم أمى

— وما خطبها ؟

— إنها فى طريقها نحو الأبدية وهذا كل ما هنا لك

— هل بلغ بها سوء الحال إلى ذلك الحد ؟

— لقد قال الطبيب إنها لن تعمر حتى الضحى

— إذاً لا بد أن تكون انتهت الآن ؟

وتلعثم أونوريه قليلاً ... فلقد أراد أن يهون المهمة التى جاء من أجلها ... فكانت المرأة أشد منه دهاء .. فلم يجد بداً من مفاتحتها مباشرة بقوله :

— كم تأخذين للعناية بأمى حتى النهاية ؟ إننا يائسون من التحسن كما تعلمين ... وأنا أشفق على النساء اللاتى يشتغلن بأنفسهن .. بالأمى المسكينة .. لقد كانت تعمل كفتاة فى العاشرة رغم بلوغها الثانية والتسعين .

وأجابت الأم رابت فى اقتضاب وتحفظ :

— إننى أتقاضى سمرين .. فللأغنياء .. فرنكان لليوم وثلاثة لليل ... أما للفقراء ... ففرنك واحد لليوم واثنان لليل ... وسأعاملك كالفريق الثانى : واحد واثنان ...

ورانح أونوريه يفكر .. إنه يعرف أمه تماماً .. ويعرف مقدار مقاومتها للمرض ... فلربما عمرت أسبوعاً آخر رغم زعم الطبيب بموتها العاجل فأجاب المرأة قائلاً :

— كلا ... إننى أريد أن أكافئك إجمالياً لإتمام المهمة .. إنه نوع من المقامرة .. فلقد أكد الطبيب أنها ستموت حالاً ... فلو تم ذلك فسيكون ربحاً لك وخسارة لى . أما إن عمرت يوماً أو اثنين . فسيكون ذلك أقل ربحاً لك وأقل خسارة لى ..

ونظرت إليه الأم رابت بدهشة ... فلم يسبق لها أن عاملت محتضراً بمثل ... وترددت لحظة ... وفجأة ... راودتها فكرة الخداع فأسرعت قائلة :

— لا يمكننى الموافقة على ذلك حتى أرى أمك

— إذن ... هيا بنا لرؤيتها

وجذفت المرأة يديها ثم تبعته صامتة طوال الطريق ، وحين مرورهم بالحقل المجاور للمنزل مرا بجموع الماشية وهى ترعى الكلأ الجاف ... فتمتم أونوريه : « اطمئنوا ... فستأكلون القمح الجديد عن قريب » .

ولم تكن المرأة العجوز قد ماتت بعد ... بل كانت مستلقية على ظهرها ، وقد امتدت يداها فوق

غطاء الفراش الملون وقد بدا عليهما الضعف والهزال.

واتجهت الأم رابت نحو الفراش ثم حدقت فى المرأة المحتضرة وتحسست بنفسها ثم مرت بيدها على صدرها وهى تصغى لصوت تنفسها الخافت الذى يشبه النزع، وألقت عليها بضع أسئلة حتى تتأكد من ضعف صوتها ؛ ثم غادرت الغرفة بعد ذلك الامتحان يتبعها أونوريه .. كان رأيها الشخصى أن المرأة لا يمكن أن تستمر على قيد الحياة حتى المساء.

وسألها أونوريه بلهفة :

— والآن ؟

وأجابته المرأة بخبث :

— ستعيش يومين وربما ثلاثة أيام .. وسأتقاضى منك ستة فرنكات .

وردد أونوريه قولها :

— ستة فرنكات ... يا لله ... ست فرنكات كاملة ؟؟ هل جننت أيتها المرأة ؟؟ سوف لا تعيش إلا خمس أو ست ساعات على الأكثر

واشتد الجدل بين الرجل والمرأة ... وأصرت المرأة على الرحيل ... فتخيل أونوريه حنطته فى انتظار الحصاد ، فلم يجد بدا من الخضوع وتمتم مستسلماً :

— سأعطيك المبلغ على أن ينتهى الأمر كلية مهما طال أمده

وأوسع خطاه نحو الحقل ... فى حين رجعت الأم رابت إلى حجرة المريضة وهمست قائلة لها :

— لا شك أنك تريدين الاعتراف يا مدام بونتمبس ؟

وأشارت مدام بونتمبس برأسها إيجاباً ... فنهضت الأم رابت بسرور ونشاط وهى تهتف :

— يا إله السموات ... سأذهب لإحضار القس

وأسرعت المرأة فى طريقها نحو القس ... وعادت معه وهى تضطره إلى الإسراع غير عابئة بدهشة الرجال الذين كانوا ينظرون إليهما باستغراب، ولا بنظرات النساء اللائى كن يرسمن علامة الصليب على صدورهن . ورآهن أونوريه عن بعد ... فتساءل عن سبب إسراع القس ، وما كان أسرع جاره فى الإجابة عليه قائلاً :

— إنه سيتلقى اعتراف أمك دون شك

ولم يساور أونوريه العجب لذلك ... بل واصل الحصاد فى هدوء

وتلقى القس اعتراف مدام بونتمبس ، ثم غادر المكان .. ومرة أخرى أصبحت المرأتان على انفراد، وابتدأت الأم رابت تفقد صبرها وهى تعجب كيف أن المرأة لم تمت حتى الآن

وشحب لون النهار ... وازدادت برودة الجو ، وراحت فراشات الليل تحوم حول النافذة تحاول التحرر من أسرها كروح المرأة المجوز التى كانت راقدة دون حراك وعيناها محملقتان وكأنها فى انتظار رؤية شبح الموت ... بينما كانت أنفاسها تتدافع من صدرها بطيئة ذات صفير خافت أليم .

وعاد أونوريه ... فوجد أمه ما زالت على قيد الحياة ... فتساءل دهشاً عن كيفية إمكان ذلك ... ثم ودع الأم رابت بعد أن أوصاها أن تعود فى تمام الخامسة من صباح اليوم التالى ... وفعلاً عادت المرأة قبل انبثاق الفجر وأسرعت بسؤال أونوريه قائلة :

— ألم تمت أمك بعد ؟

وأجابها وهو يسير نحو الحقل :

— كلا وأظنها أحسن حالاً

وضاقت الأم « رابت » ذرعاً ، فتوجهت توا إلى حجرة المرأة المحتضرة فوجدتها كما كانت بالأمس تماماً ... هادئة ساكنة مفتوحة العينين ، وبداها

ممدودان فوق غطاء الفراش اللون ... يبدو عليهما الضعف والهزال؛ ورأت الأم رابت أن المرأة يمكن أن تظل هكذا يومين أو أربعة . بل ربما عاشت أسبوعاً آخر ... وأحست بانقباض يسود نفسها ... وبحقد هائل نحو ذلك الذى خدعها بأمه التى لا تريد أن تموت. وظلت عيناها محدقتين بمدام بونتمبس طيلة هذا الصباح حتى عاد أونوريه للغداء . ثم رجع إلى حقله لإكمال حصاد حنطته .

وكادت الأم رابت تفقد شعورها . فلقد خيل إليها أن كل دقيقة تمر إنما هى زمن مسروق منها ومن حقها أن تتقاضى عليه أجراً .

وأحست برغبة قوية . رغبة مجنونة فى أن تضغط على ذلك العنق الهزيل فتخمد أنفاس المرأة التى كانت تسلبها وقتها الثمين ، ولكنها استطاعت حينئذ أن تتصور بشاعة جريمتها .

وراودتها فكرة أخرى .

واقتربت من المرأة المحتضرة ، وهمست تسألها

— ألم ترى الشيطان بعد ؟

فأجابتها مدام بونتمبس هامسة :

— كلا

وابتدأت المريضة تلقى على مسامعها بعض القصص الخرافية المخيفة . فقالت : إن الشيطان يظهر عادة لهؤلاء الذين على وشك الموت قبل موتهم بدقائق معدودات ... ثم راحت تصف لها شكل الشيطان ، فادعت أنه يحمل فى يده محصداً كبيراً وعلى رأسه قدر مملوءة بسائل يغلى مسمر به ثلاث قرون . واستمرت فى حديثها الرهيب ، فعددت لها أسماء من زعمت أن الشيطان قد ظهر لهم قبل موتهم . وفعل ذلك الحديث فعل السحر فى مدام بونتمبس .

فبدت مضطربة حائرة ، لا يستقر رأسها على الوسادة فى مكان واحد .

واختفت الأم رابت حينئذ وراء الستار المسدل بجانب الفراش . وتناولت من صندوق بالقرب منها ملاءة بيضاء ألقتها فوق رأسها فحجبتها من قمة رأسها إلى أخمص القدم . ثم وضعت على رأسها قدرا بدت أرجلها الحديدية كثلاثة قرون مدببة . ثم أمسكت بيدها مكنسة مستطيلة . وما كادت تنتهى من كل ذلك حتى صعدت فوق مقعد مرتفع .

وفجأة رفعت الستار وبدت بهيئتها أمام المريضة

وصرت لحظة فزع ورعب ... وحاولت المرأة المسكينة بكل قواها أن تهرب من الشيطان ... شيطان الموت الرهيب ... ولكنها ما كادت تتحرك حتى خانتها قواها وارتمت على الفراش مرة أخرى وانتهى كل شىء

وبكل هدوء ودعة ... أعادت الأم رابت بضاعتها إلى أماكنها ... ثم أغلقت عينى المرأة الميتة ... العينين الفزعتين المحدقتين فى خوف وفزع ... ثم ركعت على ركبتيها جانب الفراش وابتدأت تصلى على الراحلة بحكم العادة

وحين عاد أونوريه من الحقل عند الغروب ... وجد الأم رابت راكعة على ركبتيها تصلى ... فتأكد أن روح أمه قد صعدت إلى باريها

وابتدأ يفكر

لقد استمرت المرأة فى خدمة أمه ثلاثة أيام وليلة .. أى أن أجرها كان يجب أن يكون خمس فرنكات .. ولكن ... يجب عليه الآن أن يدفع ستة

وغمغم قائلاً بغضب :

— يا للحظ السىء ... لقد خسرت فرنكاً

عادل الجمال

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين ﴾